الفاء الفصيحة في القرآن الكريم
دراسة تحليلية بيانية في تفسير أبي السعود

د.المثنى عبد الفتاح محمود محمود
أستاذ مشارك بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية القرآن الكريم – الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة – المملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

يعالج هذا البحث معنى الفاء الفصيحة وفوائدها، ووظيفتها في إبراز الجمل المحذوفة، ودورها البياني في التقديرات السياقية للنص القرآني، حيث تُعدُّ هذه الفاء الرابط الحقيقي بين الجمل المذكورة والجمل المحذوفة، فهي الدالّ على ما يراه المفسر من كلامٍ حاضر في المعنى البياني للنص القرآني، ودورها قائم على إبراز خصيصة الإيجاز القرآني في إحدى صوره، من خلال ما يتحلى به من عنصر الدقة والانضباط وقيام الدليل على الفهم الأنيق، فالفاء الفصيحة، ليست مجرد حرف من حروف المعاني، وإنما هي فوق ذلك دليلٌ من أدلة الإيجاز اللفظي، ودورها عظيم في بيان خفيات التراكيب القرآنية، بما يُسهم في تجلية حركة الإعجاز وتذوقه.

ويستوعب البحث جميع المواضع التي نصَّ أبو السعود على تعيين الفاء الفصيحة فيها، إما ذكراً وإما إحالةً، ويناقشه في تلك المواضع مناقشة علمية تخصصية، بإظهار معنى الفاء تارةً، وفائدتها أخرى، وطريقة تقدير الجمل المحذوفة، وقد ظهر لي أنَّ أبا السعود هو أبرز من كانت له الصولة والجولة في توظيف الفاء الفصيحة في القرآن الكريم، وهو امتدادٌ لكلمات الزمخشري اليسيرات في هذا الباب، وكلُّ من جاء بعد أبي السعود فهو آخذ عنه، ومقتفٍ أثره.

الكلمات الدالة:

(الفاء الفصيحة – أبو السعود – إيجاز القرآن – التفسير البلاغي)

(*) تم تسليم البحث في إبريل ٢٠١٧م، وأجيز للنشر في يونيو ٢٠١٧م

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وبعد:

فإن الدراسة التحليلية البيانية لمعاني الحروف في كتاب الله تعالى، منقبةٌ عظيمة، وجهدٌ مبارك، لاسيما إذا ارتبطت بأحد أعلام التفسير والبلاغة، المتبصرين بجواهر المعرفة والعلم؛ الذين أجالوا النظرَ في كتاب الله تعالى وأطالوا، ودقَّقوا ومحَّصوا، حتى أتوا بالعبارات المرصَّعة، والجمل المنسَّقة، فكان نتاجهم لا يدانيه نتاج، ولا يصل مستواه من قطَعَ الفجاج، فهم أهلٌ للأخذ والاقتداء، والمتابعة والاحتذاء.

وقد تناولت في هذا البحث موضوعاً متخصصاً عند أبي السعود العمادي في تفسيره «إرشاد العقل السليم»، وذلك من خلال دراسة الفاء الفصيحة في القرآن الكريم، كما رآها أبو السعود – رحمه الله تعالى – فطبقها في تفسيره؛ ولذلك فستكون هذه الدراسة بيانيةً تحليلية نقدية، مبنيةً على الاستقراء التام؛ لتتم معالجة الموضوع من جميع جوانبه، معالجةً علمية متخصصة، فتكون المخرجات مطابقةً للواقع، وستكون دراستي لكلام أبي السعود في الجانب التطبيقي في جميع المباحث والمطالب، حاشا الكلام النظري الذي جعلته في المطلب الأول من المبحث الأول؛ لعدم ورود شيءٍ يخدمنا في هذا الجانب في تفسير أبي السعود.

أهمية البحث:

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يعالج مسألةً من مسائل علم معاني الحروف، في تفسير متخصص بهذا الباب من العلم، وهو نوع من الدراسة قائم على التخصصية العلمية، في بيان جزء من منهجية التفكير العلمي لدى المفسرين، والساحة العلمية بحاجةٍ اليوم إلى مثل هذه الدراسات التخصصية، بعيداً عن الطرح العمومي والإجمالي.

المشكلة البحثية:

تقوم المشكلة البحثية على سؤال رئيس، وهو: هل للفاء الفصيحة أثرٌ علمي وبياني في إبراز الجمل المحذوفة في القرآن الكريم؟، ويتفرع عنه: هل هناك دلالة واضحة لهذه الفاء عند أبي السعود؟ وهل لها ميادين بيانية تمتاز بها؟ وما دور أبي السعود في إبراز وظيفتها؟.

حدود الدراسة:

سيكون ميدان هذا البحث في تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي – رحمه الله تعالى –.

الدراسات السابقة:

في حدود اطلاعي لم أقف على بحث أو دراسة متخصصة، بحثت الفاء الفصيحة في القرآن الكريم من خلال تفسير إرشاد العقل السليم.

منهج البحث:

سيقوم هذا البحث على المنهج الاستقرائي التام في تفسير إرشاد العقل السليم، ومن ثَمَّ دراسة المواطن التي وردت فيها الفاء الفصيحة، وفق المنهج التحليلي، والمنهج النقدي.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وخاتمة، وثلاثة مباحث وفق الآتي:

المبحث الأول: مفهوم الفاء الفصيحة وفوائدها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم الفاء الفصيحة.

المطلب الثاني: فوائد الفاء الفصيحة.

المبحث الثاني: تقدير الجملة المحذوفة، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التقدير السياقي.

المطلب الثاني: تنوع الدلالة الاحتمالية في تقدير الجملة المحذوفة.

المطلب الثالث: تقدير الجملة المحذوفة شرطيةً.

المطلب الرابع: حذف الفاء الفصيحة مع جملتها الداخلة عليها.

المبحث الثالث: الجانب النقدي، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تقدير الجملة المحذوفة.

المطلب الثاني: تحديد نوع الفاء.

هذا واللهَ أسأل أن يجعل عملي هذا في ميزان حسناتي، أستضيء به في تقدير محذوفات الفهوم الغائبات، والدقائق الرائقات، والأعمال الصالحات، فهماً وعلماً وعملاً، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول
مفهوم الفاء الفصيحة وفوائدها

سأتناول في هذا المبحث مطلبين اثنين، أحدهما في بيان مفهوم الفاء الفصيحة، والآخر في فوائدها، بحيث نستجلي حقيقتها وفوائدها للمفسر المتدبر، وقد جرت العادة أن تكون البداءة بالمفاهيم، وكما بينت في المقدمة فسيكون المطلب الأول نظرياً، غير مأخوذ عن أبي السعود.

المطلب الأول
مفهوم الفاء الفصيحة

في هذا المطلب أبين مجموعةً من المسائل المتعلقة بالفاء الفصيحة، وهي كالآتي:

المسألة الأولى: معنى الفاء الفصيحة:

تأتي الفاء عند النحاة مفيدةً ثلاثة أمورٍ؛ الأول: العطف؛ ويفيد الترتيب، وهو نوعان: الترتيب المعنوي، والترتيب الذكري، والتعقيب، والسببية، والثاني: أن تكون رابطةً للجواب بالشرط، والثالث: أن تكون زائدة عند بعض النحاة[1]، وهذه الأنواع التي نصَّ عليها النحاة مُجملةٌ، يدخل في ثناياها معانٍ ووظائف أُخر للفاء، فقد ذكر السادة المفسرون الفاء الفصيحة المتضمنة معنى التعقيب والترتيب، لكنهم لما ذكروها جعلوها ذات معنًى بياني؛ ولذلك قال ابن هشام في توجيه تفسيرها بأنه: «تفسير معنى لا تفسير إعراب»[2]، وهذا يدلك على أن وظيفة الفاء الفصيحة الحقيقية تكمن في إبراز الجملة المحذوفة بناءً على المعنى السياقي.

وقد ذكر ابن عاشور مذهبين للعلماء في معنى الفاء الفصيحة، نسب **الأول** للسكاكي فقال: «معنى فاء الفصيحة أنها الفاء العاطفة إذ لم يصلح المذكور بعدها لأن يكون معطوفاً على المذكور قبلها، فيتعين تقدير معطوف آخر بينهما، يكون ما بعد الفاء معطوفاً عليه، وهذه طريقة السكاكي فيها وهي المثلى».

و**الثاني** نسبه للجمهور: «وقيل: إنها تدل على محذوف قبلها، فإن كان شرطاً فالفاء فاء الجواب، وإن كان مفرداً فالفاء عاطفة، ويشملها اسم فاء الفصيحة، وهذه طريقة الجمهور».

---

(١) ابن هشام، **مغني اللبيب**، ص٢١٣-٢١٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢٢.

ثم قال: «وعندي أن الفاء لا تعد فاءً فصيحة إلا إذا لم يستقم عطف ما بعدها على ما قبلها، فإذا استقام فهي الفاء العاطفة، والحذف إيجاز، وتقدير المحذوف لبيان المعنى»[١].

وما ذكره ابن عاشور صحيح، إلا أنَّ ما أشار إليه على أنه مذهب السكاكي هو مذهب الزمخشري، فإنه يقدر الجملة المحذوفة بناءً على تعذر عطف ما بعد الفاء على ما قبلها، وجعلها شرطيةً أحياناً لا يعني أنها الطريقة المسلوكة باطراد، وسنأتي على كلام الزمخشري في هذا الشأن، ومذهب ابن عاشور يصب في نهاية الأمر في مذهب السكاكي فليُتأمل.

وأياً ما يكن فإن معنى الفاء الفصيحة هو: مجيء جملة بعد الفاء يتعذر عطفها على مذكور قبلها، فتُقدَّرُ جملةٌ متناسبة مع السياق لتُعطف عليها الجملة المذكورة بعد الفاء.

المسألة الثانية: أولُّ من نعتها بالفصيحة:

أقدمُ نصٍ وقفتُ عليه في نعت هذه الفاء بالفصيحة، هو ما جاء في الكشاف في موضعين: الموضع الأول قال فيه: ﴿ فَٱنفَجَرَتۡ ﴾ (البقرة:٦٠) الفاء متعلقة بمحذوف، أي: فضرب فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت، كما ذكرنا في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾(البقرة:٥٤)، وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ»[٢]، الموضع الثاني قال فيه: ﴿ فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ﴾ (الحجرات:١٢) معناه: فقد كرهتموه واستقرّ ذلك، وفيه معنى الشرط، أي: إن صحّ هذا فكرهتموه، وهي الفاء الفصيحة»[٣]، وقد ذكر تعلق هذه الفاء بالجمل المحذوفة في مواضع أخرى من تفسيره دون أن ينعتها بالفصيحة[٤].

وهذه الفاء وإن لم تكن معهودةً بالفصيحة – فيما اطلعت عليه – قبل الزمخشري، إلا أنَّ أول من أصلَّ معناها وبينَّ وظيفتها هو أبو علي الفارسي حيث قال: «فأمّا الفاء في قوله: ﴿ فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ﴾(الحجرات:١٢) فعطفٌ على المعنى، كأنّه لمّا قيل لهم: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ قالوا: لا، فقيل لهم لما قالوا: لا:﴿ فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ﴾، أي: كرهتم أكلَ لحمه ميتاً، فكما كرهتم أكل لحمه ميتاً؛ فكذلك فاكرهوا غيبته»[٥].

(١) يُنظر: **التحرير والتنوير** لابن عاشور، ج١ص٥٠٢.
(٢) الزمخشري، **الكشاف**، ج١ص١٧٣.
(٣) المرجع السابق، ج٤ص٣٧٦.
(٤) يُنظر: المرجع السابق، ج١ص١٨١، وج١ص١٩٦.
(٥) أبو علي الفارسي، **الحجة للقراء السبعة**، ج٦ص٢١٢.

فالفارسي قدَّر معنى التشبيه، وأصلُ هذا المعنى مردُّه ومنبعه من كلام شيخ المفسرين، وهو المرويُّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في معنى تشبيه كراهية الغيبة بأكل لحم الميت[1]، وعليه فإن الفاء الفصيحة ذات معنى قديم، وإن لم ينص المتقدمون على ذلك، لكنه ملحوظ في تصاريف كلامهم، فالمصطلح العلمي لا يصل إلى مستوىً من التقدم التنظيري إلا بعد أخذ صولات وجولات من التقرير والتقعيد، ولا يرتضي العلماء معناه، ثم تسميته إلا إذا كان مكتملاً ناضجاً في وظائفه ودلالاته.

ومعظم كتب البلاغة قد تابعت الزمخشري لاسيما عند قوله تعالى:

﴿ فَٱنفَجَرَتۡ ﴾،وجعلوه في باب إيجاز الحذف[2]، وقد ذكر السكاكي الفصيحة أخذاً عن الزمخشري فقال: «وانظر إلى الفاء التي تسمى فاء فصيحة في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ (البقرة:٥٤)، كيف أفادت: فامتثلتم، فتاب عليكم[3]، وفي قوله: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ ﴾ (البقرة:٦٠)، مفيدة: فضرب، فانفجرت، وتأمل قوله: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ (البقرة:٧٣)، أليس يفيد: فضربوه، فحيي[4]، فقلنا: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾وإنه فن من البلاغة لطيف المسلك»[5]، وبه يكون السكاكي متابعاً للزمخشري، وإن لم ينص الزمخشري على اسمها في جميع المواضع، فإنَّ معناها ووظيفتها حاضران.

المسألة الثالثة: وجه تسميتها بالفصيحة:

وحول تسمية هذه الفاء بالفصيحة اختلفت كلمةُ النظَّار حول ذلك، فجاء في حاشية

(١) يُنظر: قول الطبري والرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، الطبري، **جامع البيان**، ج٢٢ص٣٠٨.

(٢) يُنظر: **الإيضاح في علوم البلاغة**، للخطيب القزويني، ص١٨٣، ومن المعاصرين؛ الصعيدي، **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**، ج١ص١٨٣.

(٣) قال الزمخشري عن هذه الفاء: «متعلقة بمحذوف، ولا يخلو إما أن ينتظم في قول موسى لهم، فتتعلق بشرط محذوف، كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، وإما أن يكون خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات، فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم»، الزمخشري، **الكشاف**، ج١ص١٩٦.

(٤) قال الزمخشري: «والمعنى: فضربوه، فحيي، فحذف ذلك لدلالة قوله: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾، الزمخشري، **الكشاف**، ج١ص١٨١.

(٥) السكاكي، **مفتاح العلوم**، ص٢٧٨.

الشهاب: «قال المحقق[١]: ووجه فصاحتها؛ إنباؤها عن ذلك المحذوف، بحيث لو ذُكر لم يكن بذلك الحسن، مع حسن موقع ذوقي لا يمكن التعبير عنه.. فالوجه العام أن يقال: إنه لتعينه وإفصاح الكلام عنه كأنه مذكور، وتسميتها فصيحة؛ لإفصاحها عن المقدر ودلالتها عليه، أو لفصاحة المتكلم، أو الكلام الذي هي فيه»[٢].

وبه يكون السعد التفتازاني قد احتمل في وجه تسميتها بالفصيحة احتمالين اثنين: **الأول**: الإفصاح عن المحذوف، **الثاني**: الإفصاح عن المتكلم أو الكلام.

والناظر في صنيع الزمخشري يجده قد سماها بالفصيحة؛ لإفصاحها عن محذوفٍ مُقدَّر، وأما قوله: «لا تقع إلا في كلام بليغ»[٣]، فليس تعليلاً للتسمية، وإنما هو وصفٌ لواقعها؛ لأن مقتضى بلاغة الكلام حذفُ جملٍ مع إبقاء معناها، هذا ما يقتضيه عمود البلاغة في باب الإيجاز؛ وعليه فالاحتمال الراجح أنها سُميت بالفصيحة لإفصاحها عن مقدَّرٍ محذوف، جاء في الكليات: «لا تسمى فصيحة إن لم يحذف المعطوف عليه»[٤]، وأما الاحتمال الثاني بفرعيه وهما فصاحة المتكلم وفصاحة الكلام؛ فهما لازمان عن الاحتمال الأول؛ لأنَّ الذي يوجز الألفاظَ فيُضمرُ المعاني لتُقدَّر فصيحٌ ذو كلام بليغ.

المسألة الرابعة: ضابط الفصيحة:

يرى أكثر البيانيين أنَّ شرط هذه الفاء أن يكون محذوفُها سبباً للمذكور، فقد جاء في حاشية الشهاب: «لأنّ شرطها أن يكون المحذوف سبباً للمذكور»[٥].

وقال التفتازاني: «إنَّها تفصح عن المحذوف، وتفيد بيان سببه؛ كالتي تذكر بعد الأوامر والنواهي بياناً لسبب الطلب»[٦]، وقيَّد بعضهم ضابطها بالشرط، فجاء في دستور العلماء: «الفاء الفصيحة: هي الفاء الداخلة على جزاء الشرط المحذوف فهي تفصح عن شرطها وتظهر»[٧].

---

(١) يريد بذلك التفتازاني في حاشيته على الكشاف، ويشير إليه أحياناً بالشارح المحقق.
(٢) الشهاب الخفاجي، **عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي**، ج٢ص١٦٥.
(٣) الزمخشري، **الكشاف**، ج١ص١٧٣.
(٤) الكفوي، **الكليات**، ص١٠٧٤.
(٥) الشهاب الخفاجي، **عناية القاضي**، ج٢ص١٨٢.
(٦) السيوطي، **نواهد الأبكار وشوارد الأفكار**، ج٢ص٢٥٣، ويُنظر؛ **عِنَايةُ القَاضِي**، للخفاجي، ج٣ص٢٢٨.
(٧) الأحمد نكري، **دستور العلماء**، ج٣ص١١.

والصحيح أنها أعم من ذلك حيث «تختلف العبارة في تقدير المحذوف، فتارة أمراً ونهياً كما في هذه الآية[1]، وتارةً شرطاً كما في قوله تعالى: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾(الروم:٥٦)، وتارة معطوفاً عليه كما في قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾(البقرة:٦٠)، وقد يصار إلى تقدير القول كما ذكر في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾(الفرقان:١٩)»[2]، وعليه فضابط هذه الفاء أن يكون المعنى في الجملة المحذوفة هو السبب في الجملة المذكورة، والفاء تصل بين معنى المذكورة ومعنى المحذوفة، ومن هاهنا حسُن أمرُ هذه الفاء، والذي يُعينُ على التقدير هو تدبرُ السياق، وربط المعاني بعضِها ببعض، وإدراك هذا الضابط هو مدار فهم وظيفة الفاء الفصيحة في باب الإيجاز، ففصاحتها كامنةٌ في الإفصاح عن محذوف.

وقد تنبه الشيخ الميداني لهذا المعنى فنبَّه عليه بقوله: «قَالُوا: الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾(الأعراف:١٦٠) هي الفاء الفصيحة، إذْ أَفْصَحَتْ عن محذوفات في النّص، أقول: الذي دَلَّ على هذه المحذوفات دليلُ النظر الفكري، والتأمُّل في اللّوازم الذهنيَّة التي تَرْبِط بين الأمْرِ بأن يضرب بعصاه الحجر، وبين حدوث ظاهرةِ تفجُّرِ الْحَجَرِ بالماء، والفاء لم تدلُّ إلاَّ على الترتيب مع التعقيب»[3].

أقول: ما قاله الشيخ – رحمه الله تعالى – صحيح من حيث الجملة، لكنَّ البيانيين لا يتعاملون مع معطيات الحروف بهذا النظر المجمل؛ لأنهم يفرقون بين أنواع الفاء، فإذا كانت الفاء مفيدةً للسرعة مع ذكر المعطوف عليه فهي تعقيبية، وإذا لم تُذكر الجملة المعطوف عليها فهي حينئذ الفصيحة؛ لأنها احتاجت إلى إعمال الذهن والفهم لتقدير الجملة المحذوفة، وهذا لا يكون في الفاء التعقيبية التي عطفت مذكوراً على مذكور، والأمر ليس كذلك فيما يخص الفصيحة؛ ولذلك قالوا: «لا تسمى فصيحة إن لم يحذف المعطوف عليه»[4]، فالفرق بين التعقيبية والفصيحة، أن الأولى قائمة على تدبر المذكورات، والثانية فهي تحتاج إلى المزاوجة بين المذكور والمحذوف.

(١) أي: قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٞۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾(المائدة:١٩).
(٢) السيوطي، **نواهد الأبكار** ج٢ص٢٥٣، ويُنظر: **عِنَايَةُ القَاضِي**، للشهاب الخفاجي، ج٣ص٢٢٨.
(٣) عبد الرحمن الميداني، **البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها**، ج١ص٤٧٧.
(٤) أبو البقاء الكفوي، **الكليات**، ص١٠٧٤.

المسألة الخامسة: بلاغة الفاء الفصيحة:

تكمن بلاغة هذه الفاء في بيان المعنى المحذوف بوساطة المذكور، وهنا مربط جمالها، والفاء في حقيقتها دليل لفظي على وجود جملة محذوفة يقتضيها السياق دلالةً؛ لأن الفاء عاطفةٌ جملةً على أخرى، ولما كانت الجملة المحذوفة تقتضي معنىً واضحاً كان حذفها هو الأولى، مع الإشارة إلى نكتة بيانية يقتضيها السياق، كتصوير سرعة تحقق الحدث، أو سرعة الامتثال، أو الفجاءة، وغير ذلك من المعاني التي يتمكن وقوعُها مع الفصيحة، ولا يظهر جمالُ بلاغتِها بدونها، والفاء بهذا الاعتبار تدخل في باب الإيجاز.

وتُعدُّ الفاء الفصيحة الدليل اللفظي على المحذوف، فلولا هذه الفاء لكانت الجملة المذكورة معلقةً لا يظهر وجه ارتباطها الدلالي بسياقها، فكانت الفاء رابطةً معنى اللفظ المذكور بمعنىً آخر محذوف، وهذا الارتباط هو الذي قال في حقه سعد الدين التفتازاني: «لكن كمال حسنها وفصاحتها أن تكون مبنيةً على التقدير، منبئةً عن المحذوف، بخلاف قولك: اعبد ربَّك فالعبادة حق له، ومبنى الفاء الفصيحة على الحذف اللازم، بحيث لو ذكر لم تكن تلك الفصيحة»[1].

فمبنى بلاغة هذه الفاء هو الإيجاز في الجمل الملفوظة التي يُستدل عليها بوساطة المذكور، اتكاءً على ذهن المخاطب، وقدرته على تدبر النص والتفكر فيه، وردِّ بعضه على بعض، لإظهار المعاني التي يقتضيها سياق الكلام ونظمه، وهو من أبواب الإعجاز التي تستحق الدرس الفذَّ، والنظر الثاقب.

المطلب الثاني
فوائد الفاء الفصيحة

من خلال دراستي لتفسير أبي السعود دراسةً استقرائية تأملية حول ما ورد فيه من ذكرٍ للفاء الفصيحة، فإنني أستطيع أن أسجل هاهنا مجموعة من الفوائد البيانية، التي توقفنا على سرٍّ من أسرار الإيجاز القرآني، وتتمثل هذه الفوائد بالآتي: تصوير سرعة الامتثال، وتصوير سرعة تحقق الحدث، وبيان معنى التعليل، وبيان عنصر المفاجأة، وسأسردها وفق الترتيب المذكور.

(١) السيوطي، **نواهد الأبكار**، ج٢ص٢٥٣، ويُنظر؛ **عِنَايةُ القَاضِي**، للشهاب الخفاجي، ج٣ص٢٢٨.

الفائدة الأولى: تصوير سرعة الامتثال:

صرَّح أبو السعود بهذا المقصد بوضوح، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٧٩- ٨١)، حيث قال: «﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ عطف على مُقدَّرٍ يستدعيه المقام، قد حُذِف إيذاناً بسرعة امتثالهم لأمرِ فرعون، كما هو شأنُ الفاء الفصيحة في كلِّ مقام، أي: فأتوا به؛ فلما جاءوا قال لهم موسى»[1].

فالفاء الفصيحة تُبرِز هاهنا سرعةَ امتثال المأمورين بالإتيان بالسحرة، ولهذا الإبراز بعدٌ نفسيٌّ تقتضيه علائق السياق ودلالته، فسرعة الاستجابة ناشئة عن صورة نفسية مضطربة تمثلت في شخص فرعون، وهذا الذي جعل المأمورين يسارعون بالإتيان بالسحرة؛ فقد أدركوا أن الأمر جلل، وهو ما يفيده استعمال «كل» المفيدة للعموم، ووصف ساحر بعليم.

ولم أرَ أحداً من المفسرين قد نصَّ على أن الفاء هاهنا هي الفصيحة، سوى الآلوسي، وهو متابع في ذلك لأبي السعود، حيث نقل عبارته كما هي دون أدنى تعليق عليها[2]، إلا أن مكياً – رحمه الله تعالى – قال في الهداية: «وفي الكلام اختصار، والمعنى: فأَتَوْه بالسحرة»[3].

وقال ابن عاشور: «وجملة: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ عطف على جملة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ عطف مجيء السحرة، وقول موسى لهم على جملة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بفاء التعقيب؛ للدلالة على الفور في إحضارهم، وهو تعقيب بحسب المتعارف في الإسراع بمثل الشيء المأمور به، والمعطوف في المعنى محذوف؛ لأن الذي يعقب قوله: ﴿ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ هو إتيانهم بهم؛ ولكن ذلك لقلة جدواه في الغرض الذي سيقت القصة لأجله، حذف استغناء عنه بما يقتضيه ويدل عليه دلالة عقلية ولفظية من قوله: ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ على طريقة الإيجاز. والتقدير: فأتوه بهم، فلما جاءوا قال لهم موسى»[4].

والفاء الفصيحة أفادت التعقيب، وقد آثر ابن عاشور تسميتها تعقيبية دون نعتها بالفصيحة؛ لظهور معنى الفور والسرعة فيها، ولعلَّ بروزَ هذا المعنى هو الأظهر بادي

(١) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج٤ ص١٦٩.
(٢) يُنظر: **روح المعاني**، للآلوسي، ج١١ ص١٦٦.
(٣) مكي بن أبي طالب، **الهداية إلى بلوغ النهاية**، ج٥ ص٣٣٠٥.
(٤) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١١ ص١٥٢.

الرأي؛ ولهذا السبب سمَّاها ابن عاشور تعقيبية، فهي تعقيبية لسرعة الامتثال، وسماها أبو السعود فصيحة؛ لأنها أفصحت عن معنىً محذوف، وعند التدقيق نرى أن مذهب أبي السعود هو الأدق، وذلك أنها أفادت إظهار المحذوف، وسرعة تحقيق الفعل، فإفادتها لعنصر سرعة الامتثال أوضح من إفادتها معنى التعقيب، كما قال الشهاب في موضع آخر، حيث بينَّ السرَّ البياني للفصيحة وإيثارها على التعقيبية: «وما ذكر من الإيماء – أي: الإيماء إلى المحذوف –، قيل عليه: إنّ الفاء التعقيبية تدل عليه، وأجيب بأنّ الحذف أدلّ منها، ووجهه؛ أنه توهم أنّ الانبجاس اتصل بالأمر من غير فصل فتأمل»[1].

وعند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾(طه:٧٧–٧٨)، يقول – رحمه الله تعالى –: «فالفاء فصيحة، معربةٌ عن مضمرٍ قد طُوِيَ ذكرُه ثقةً بغايةِ ظهوره، وإيذاناً بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال بالأمر، أي: ففعل ما أُمر به من الإسراء بهم، وضرب الطريق وسلوكه، فأتبعهم فرعونُ بجنوده براً وبحراً»[2].

وهذا الإضمار إنما يُحيط به التفكرُ والتدبرُ والتأملُ، ويُصَوِّرُ الحدث بأدوات البيان، وما طُوِيَ ذكره ظاهر للمتبصر المتفهم، وفائدته بيان سرعة امتثال موسى عليه السلام، وهذه الفائدة لا تكون إلا بحذف الفعل الصادر عن موسى عليه الصلاة والسلام[3]، فهو تحصيل حاصل، وتحقيق أمر آمر، مما جعل حذفه أوضح من ذكره، وأقرب في البيان من إيراده، وتتبين هذه الفائدة في مواضع أخرى[4].

الفائدة الثانية: تصوير سرعة تحقق الحدث:

تختلف هذه الفائدة عن سابقتها، بأنَّ السابقة تُبرز سرعة امتثال المأمور لأمر الآمر،

---

(١) الشهاب الخفاجي، **عناية القاضي**، ج٤ص٢٢٧.

(٢) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج٦ص٣٢.

(٣) ويقول في موطنٍ آخر في بيان هذه الفائدة: «والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾فصيحة، مفصحةٌ عن عطفه على جملة مترتبة على ما قبلها من الأمر بالإلقاء، قد حذفت تعويلاً على دلالة الحال، وإيذاناً بكمال سرعة الامتثال، أي: فألقته في اليم بعد ما جعلته في التابوت، حسبما أمرت، فالتقطه آل فرعون»، يُنظر: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، لأبي السعود، ج٧ص٤، وانظر كذلك: ج٧ص٢٢٦.

(٤) يُنظر: المرجع السابق، ج٥ص٣٢.

أما هذه فهي تبرز سرعة تحقق الحدث، وإن كان هناك التقاء في أصل المعنى، إلا أن العبرة في مدى إبراز سرعة تحقق الحدث من سرعة الامتثال، وتظهر هذه الفائدة في مواضع في تفسير أبي السعود، فعند قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾(النمل: ١٠)، قال أبو السعود: «والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾فصيحة، تفصح عن جملة قد حذفت ثقةً بظهورها، ودلالةً على سرعة وقوع مضمونها – كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾(يوسف: ٣١) بعد قوله تعالى: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾– كأنه قيل: فألقاها، فانقلبت حية تسعى، فأبصرها، فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب»[١].

وكذلك عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾(القصص: ٣١)، قال: «والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾فصيحة، مفصحة عن جملٍ قد حُذِفت تعويلاً على دلالة الحال عليها، وإشعاراً بغاية سرعة تحقق مدلولاتها، أي: فألقاها فصارت ثعباناً، فاهتزت، فلما رآها تهتز كأنها جان»[٢].

ونجده – رحمه الله تعالى – في هذا الباب يرفض تقدير المحذوفة شرطية؛ وذلك بسبب ما تمليه من ضعف بياني، وقلة اكتراث بالمقصود من الحذف وهو سرعة وقوع الحدث، فعند قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾(البقرة: ٦٠)، يقول – رحمه الله –: «﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام، قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار؛ كأنه حصل عقيب الأمر بالضرب، أي: فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وأما تعلق الفاء بمحذوف، أي: فإن ضربت فقد انفجرت، فغير حقيق بجلالة شأن النظم الكريم كما لا يخفى على أحد»[٣]، وقد جعل – رحمه الله – هذه الآية بمثابة الأصل الذي يُقاس عليه في تفسيره، فكان يُشير إلى هذه الآية، بقوله: « كما في ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾»[٤]، باعتبارها أصلاً واضحاً لدى البيانيين، التي أصبحت من الأمثلة

(١) **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج٦ص٢٧٤.
(٢) المرجع السابق، ج٧ص١٢.
(٣) المرجع السابق، ج١ص١٠٦.
(٤) يُنظر: المرجع السابق، ج١ص١١٢، و ج٣ص٢٤٠، و ج٦ص١٠٤.

الواضحة على الفاء الفصيحة، وهو بذلك يرفض الاحتمال الثاني الذي احتمله الزمخشري من كونها شرطية[١]، وبه تظهر الشخصية العلمية المتينة لأبي السعود، فلم يكن متابعاً بقدر ما كان محققاً ومدققاً.

فالفاء في هذه الآيات بينت عنصر السرعة في تحقيق الحدث، وهو المقصد من طي الأحداث في هذه السياقات، وهو مقصدٌ عظيم، يدل على سرعة تحقق الأحداث، وسرعة تحقق هذه الأحداث كان مرتبطاً بسرعة الاستجابة لأمر الوحي، ولهذا شواهد كثيرة في التفسير[٢].

تصوير سرعة الامتثال وسرعة تحقق الحدث معاً:

يبرز أبو السعود أحياناً الفائدتين معاً، أي: تصوير سرعة الامتثال وسرعة تحقق الحدث، فعند قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾(الأعراف:١١٧)، يبين أبو السعود وظيفة الفاء الفصيحة في إبراز عنصر السرعة التي فيها تحولت العصا إلى حيةٍ تسعى، من حيث سرعة امتثال موسى عليه السلام، وسرعة تحقق الحدث، فيقول: «الفاء فصيحة، أي: فألقاها فصارت حية﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾، وإنما حُذف للإشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء، وبغاية سرعة الانقلاب؛ كأنَّ لقفها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء»[٣].

وكلامه يبرز فائدتين للفاء الفصيحة، وهما: **أولاً:** مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام استجابةً لأمر الوحي في إلقاء العصا، وهذا يدل على الطمأنينة والثبات الذي تحلى به من صُنِع على عين الله تعالى، **ثانياً:** سرعة انقلاب العصا حيةً، وهذا يدل على وظيفة الفاء الفصيحة في تصوير الحدث، وتصوير سرعة تحققه؛ ولذلك عبرَّ عنه أبو السعود بقوله: «كأنَّ لقفها لما يأفكون قد حصل متصلاً بالأمر بالإلقاء»، أي: أنه لم يكن هناك فاصل زماني بين الأمر بالإلقاء، ولقف العصا للحبال والعصي، وهذا يصور الحدث، ويصور تفاصيل الحدث لاسيما التفاصيل الزمانية، التي تكفلت بها الفاء الفصيحة، وقد جرى على هذا في غير موضعٍ من تفسيره[٤].

(١) حيث لم يرجح الزمخشري احتمالاً على آخر، واكتفى بالإيراد، يُنظر: **الكشاف**، للزمخشري، ج١ص١٧٣.
(٢) يُنظر: **إرشاد العقل السليم**، لأبي السعود، ج٦ص٢٧، وج٦ص٢٤٥، وج٨ص١٤٠، وج٩ص٨٩.
(٣) المرجع السابق، ج٣ص٢٦٠.
(٤) يُنظر: المرجع السابق، ج٦ص٣٢.

الفائدة الثالثة: بيان معنى التعليل:

تتعلق الفصيحة بجملةٍ محذوفة يكون ما بعد الفاء كالعلة للمحذوف، فعند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾(المائدة:١٩)، يقول أبو السعود: «وقوله تعالى:﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ ﴾ متعلق بمحذوف ينبئ عنه الفاء الفصيحة، وتُبَيِّن أنه معلَّل به»[١].

وقد اكتفى ببيان وظيفة الفاء، حيث بينَّ أمرين اثنين؛ **الأول**: وجود جملة محذوفة، **الثاني**: أن قوله تعالى:﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ ﴾معلَّل بهذا المحذوف، ولم يُبيِّن ماهية التعليل، وذكر ابنُ عاشور التعليل مبيناً معناه، فقال: «الفاء فيه الفصيحة، وقد ظهر حسن موقعها بما قررت به معنى التعليل؛ أي: لئن قلتم ذلك فقد بطل قولكم، إذ قد جاءكم بشير ونذير»[٢].

ومعنى التعليل عند أبي السعود ليس ما قرره ابن عاشور من تقدير الشرطية فحسب، بل هو ما قدَّره أبو السعود نفسُه في موطنٍ آخر حين قال: «قوله تعالى:﴿فَقَدۡ جَآءَكُم ﴾متعلق بمحذوف يُنبئ عنه الفاء الفصيحة؛ إما معلَّل به، أي: لا تعتذروا بذلك﴿ فَقَدۡ جَآءَكُم ﴾، وإما شرطية»[٣]، وبذلك يكون متابعاً لما ذهب إليه الزمخشري وهو أنَّ الجملة المحذوفة معناها النهي، فقال: «متعلق بمحذوف، أي: لا تعتذروا،﴿ فَقَدۡ جَآءَكُم ﴾»[٤]، وهو ما قرره أبو حيان بمزيد إيضاح: «وفي الكلام حذف أي: لا تعتذروا﴿ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ ﴾، أي: لمن أطاع بالثواب، ﴿ وَنَذِيرٞ ﴾ لمن عصى بالعقاب، وفي هذا ردٌّ على اليهود حيث قالوا: ما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بعده»[٥]، وهذا أوضح ما يكون في اليهود.

وقد جوَّز الآلوسي تقديرَ قولٍ محذوف فقال: «وإن شئت قدَّرت هنا أيضاً «فقلنا: لا تعتذروا فقد.. الخ»، وقد صرَّح بعضُ علماء العربية أن حقيقة هذه الفاء أنها تتعلق بشرط

(١) يُنظر: **إرشاد العقل السليم**، لأبي السعود، ج٣ص٢٢.
(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٥ص٧٥.
(٣) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٣ص٢٠٢.
(٤) الزمخشري، **الكشاف**، ج١ص٦٥٣، ويُنظر؛ **أنوار التنزيل**، للبيضاوي، ج٢ص٣١٠.
(٥) أبو حيان، **البحر المحيط**، ج٤ص٢٥٨.

محذوف، ولا ينافي ذلك إضمارُ القول[١]؛ لأنه إذا ظهر المحذوف لم يكن بدٌّ من إضمارٍ ليرتبط بالسابق، فيقال في البيت[٢] مثلاً: وقلنا أو فقلنا: إن صح ما ذكرتم فقد جئنا خراسانا.

وكذلك ما نحن فيه، فقلنا: لا تعتذروا فقد جاءكم، ثم إنه في المعنى جواب شرط مقدَّر، سواء صرح بتقديره أم لا؛ لأن الكلام إذا اشتمل على مُتَرَتبين أحدهما على الآخر ترتبَ العلِّية، كان في معنى الشرط والجزاء، فلا تنافي بين المقادير المختلفة، ولو سلم التنافي فهما وجهان، ذكروا أحدهما في موضع، والآخر في آخر»[٣].

فالفاء الفصيحة رتبت ما بعدها على ما قبلها ترتبَ العليَّة، أي: لا تعتذروا أيها المخاطبون بعدم مجيء البشير النذير، فقد جاءكم ولم يبقَ معكم حجة في الامتناع عن الامتثال والاتباع، فيكون المجيء حينئذ هو العلة المُقنعة للمخاطبين، لاسيما أنهم كانوا يطالبون بتحققه، بل يتوعدون به؛ فلما جاءهم كان لا بد من نهيهم عن التعذر والمخالفة، وبذلك بان أنَّ الفصيحة بيَّنت العلاقة بين المذكور والمحذوف، وأن الحذف ذو بلاغة ورونق بما لا يخفى على متدبر.

الفائدة الرابعة: بيان عنصر المفاجأة:

من الفوائد الجليلة للفاء الفصيحة، التي يُبرزها أبو السعود هو بيان عنصر المفاجأة في القصة، فعند قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾(النحل:١١٣)، قال – رحمه الله –: «﴿فَكَذَّبُوهُ﴾في رسالته، أو فيما أخبرهم به مما ذكر، فالفاء فصيحة، وعدم ذكره للإيذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم؛ فأخذهم العذاب المستأصل لشأفتهم»[٤].

وقول الشيخ: «وعدم ذكره» أي: المحذوف؛ لبيان أنهم عاجلوا التكذيب من غير مهلة، «والتعبير بالفاء في قوله:﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يُشعر بأنهم لم يتمهلوا، ولم يتدبروا دعوة هذا الرسول،

---

(١) وقد سبق بيان تجويز أبي السعود ذلك في قوله تعالى:﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

(٢) يريد بذلك بيت عباس بن الأحنف: قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا... ثم القفول فقد جئنا خراسانا وهو ما أنشده العباس في حضرة الرشيد حين تأخر رجوعه إلى بغداد، يُنظر: **الأغاني**، للأصفهاني، ج٨ص٣٨٨.

(٣) الآلوسي، **روح المعاني**، ج٦ص١٠٤.

(٤) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٥ص١٤٦.

وإنما قابلوها بالتكذيب السريع بدون روية، مما يدل على غباوتهم وانطماس بصيرتهم»[1].

وتقدير المحذوف هو: أنه قد جاءهم رسول منهم فبلغهم الرسالة وأنذرهم فكذبوه، ومقصود الحذف مفاجأة المخاطَب بموقفهم في استعجالهم التكذيب، فعدل عن مقتضى الظاهر من ذكر التبليغ، إلى مقتضى الحال في ذكر التكذيب؛ لبيان هذه النكتة؛ والاعتبار منها لدى المخاطبين، بالإضافة إلى إبراز عنصر المفاجأة، وعليه فتكون الفاء الفصيحة متضمنةً معنى الفجاءة.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

وتأتي الفاء الفصيحة فجائيةً، كما قرَّره الزمخشري في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾(الفرقان: ١٩)، فقال: «هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصةً إذا انضم إليها الالتفات، وحذف القول»[2]، وقدَّر المحذوف الشهاب بقوله: «إن قلتم: إنهم أضلونا إذ عبدناهم؛ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ وتسمية الفاء الفصيحة فجائية ذكره الزمخشريّ هنا، ووجهه ظاهر»[3].

وعند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(يوسف: ٣١)، ذكر أبو السعود فائدتين للفصيحة: **الأولى**: تحقيق الفجاءة، وجعله المقصود الأول، و**الثانية**: سرعة الامتثال، وجعلها تابعةً للفائدة الأولى، فقال: «﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ عطف على مقدَّرٍ يستدعيه الأمر بالخروج، وينسحب عليه الكلام، أي: فخرج عليهن فرأينه، وإنما حذف تحقيقاً لمفاجأة رؤيتهن؛ كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن، كما حذف لتحقيق السرعة في قوله عز وجل﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ بعد قوله﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، وفيه إيذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها، فيما لا يشاهد مضرته من

(١) سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط**، ج٨ص٢٤٥.
(٢) الزمخشري، **الكشاف**، ج٣ص٢٧٦.
(٣) الشهاب الخفاجي، **عناية القاضي**، ج٦ص٤١٢.

الأفاعيل»[1].

فهذه الفوائد للفاء الفصيحة تُبرِز قيمتها البيانية، ووظيفتها البلاغية، في إظهار مكامن النص وخفياته، مما يجعل دور هذه الفاء دوراً رائداً في تقدير المحذوفات بما يتناسب ويتناسق مع مقاصد النص القرآني، وما يتركه من آثار كتاب الإعجاز الخالد في النفوس.

المبحث الثاني
تقدير الجملة المحذوفة

سنقف في هذا المبحث مع أربعة مطالب نبين فيها تقدير الجملة المحذوفة، من حيث دور السياق في ذلك، وتنوع احتمال التقدير للمحذوف، وتقدير المحذوف جملةً شرطية، وحذف الفاء الفصيحة مع الجملة المحذوف، وكيفية تقديرها في هذه الصورة، وستكون كالآتي:

المطلب الأول
التقدير السياقي

اعتمد أبو السعود – رحمه الله تعالى – السياق[2] في تقدير الجمل المعطوف عليها، وهذا شأن الفصيحة، في كونها تربط المذكور بالمحذوف، وتكشف المعطوف عليه بالمعطوف، فهي الرابط والصلة بين الملفوظ وغير الملفوظ، وإنما تكمن معرفة المعنى المحذوف من خلال التدبر والتأمل لما ورد في معاني الألفاظ المذكورة، فعند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾(الإسراء: ١٠١)، قال – رحمه الله تعالى –: «﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾الفاء فصيحة، أي: فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات، وبلَّغه ما أرسل به،﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾»[3].

فتقدير أبي السعود للجملة المحذوفة من سياق الآية نفسِها، وهي قولُه: «فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات، وبلَّغه ما أُرسل به»، وهو ما ورد في سباق الآية من ذكر إيتاء الآيات البينات، وعليه فيكون قول فرعون عليه اللعنة:﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾بعد مجيء الآيات البينات، وثبوت الأمر في بيان الحجة، وهو القول الذي يتلاءم

(١) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٤ص ٢٧١–٢٧٢.

(٢) السياق هو «تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية، في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال»، يُنظر: **نظرية السياق القرآني** للمثنى عبد الفتاح محمود ص١٥.

(٣) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٥ص١٩٨، وتابعه الآلوسي ج١٥ص١٨٥.

مع اللحاق كذلك، إذ أجاب موسى عليه السلام فرعون بقوله: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾(الإسراء:١٠٢)، فلما ذكر الآيات البينات مجملةً، كان من المناسب كذلك أن يذكر موقف فرعون وعقوبته بسبب موقفه مجملاً: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾(الإسراء:١٠٣).

يقول الخطيب الشربيني:«﴿ فَقَالَ ﴾، أي: فذهب إلى فرعون، فأمره بإرسالهم معه، فأبى، فأظهر له الآيات واحدةً بعد أُخرى، فتسبب عن ذلك صدقُ ما يقتضيه الحال، وهو أن قال: ﴿لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾ عتوًا واستكباراً: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾»[1].

وقد كثرت التقديرات المبنية على السياق للجمل المحذوفة في تفسير أبي السعود[2]، وكما لا يخفى بأن التقدير يجب أن يكون سياقياً؛ لأن السياق هو الحارس الفعلي للمعاني السابقة واللاحقة، ولا يضبط الأفهام السديدة إلا السياق، وقد كان السياق حاضراً في جميع مواضع الفاء الفصيحة، لكننا مثَّلنا هاهنا بأوضح التقديرات السياقية الظاهرة.

وأحياناً تأتي الفاء الفصيحة لبيان تحقق ما ذُكر في سباق الآيات تحققاً فعلياً، بحيث تؤدي الفاء الفصيحة دوراً سياقياً في الإفصاح عن محذوف فعلي سبق بيانه قبل تحققه، فعند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٥٢)، يقول – رحمه الله تعالى –: «والفاء فصيحة، تفصح عن تحقق جميع ما قالته الملائكة، وخروجه من القوة إلى الفعل، كأنه قيل: فحملته فولدته فكان كيت وكيت، وقال ذيت وذيت، وإنما لم يذكر اكتفاءً بحكاية الملائكة، وإيذاناً بعدم الخلف، وثقةً بما فُصِّل في المواضع الأخر»[3].

وهذا التقدير تقديرٌ سياقي مفهومٌ من كلام الملائكة الواردِ من مطلع قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾(آل عمران:٤٥) إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (آل عمران:٥١)، وما قالته الملائكة هو المعبرَّ عنه بالقوة في كلام أبي

(١) الشربيني، **السراج المنير**، ج٢ص٣٧٩.
(٢) يُنظر: **إرشاد العقل السليم**، لأبي السعود، ج٥ص٢١٥، وج٥ص٢٣٥، وج٥ص٢٤٦، وج٦ص١٦، وج٦ص٢٨، وج٦ص٨٢، وج٧ص١١، وج٨ص٨٦.
(٣) المرجع السابق، ج٢ص٤١.

السعود، والمقدَّر بوساطة الفاء الفصيحة هو المعبرَّ عنه بالفعل، فخرج كلام الملائكة من القوة إلى الفعل الذي قدَّره أبو السعود بقوله: «فحملته فولدته فكان كيت وكيت..»، وذكر – رحمه الله – أن السبب الذي لأجله عدل القرآن عن الذكر إلى الحذف إنما يكمن في أمور:

أولاً: الاكتفاء بحكاية الملائكة، فأغنى ذكرُ كلام الملائكة في سباق الآيات عن إعادته مرةً أخرى بعد تحقق وقوعه فعلياً، فكان الكلام المذكور قوةً قُبيل وقوعه، مُقدَّراً فعلاً بعد وقوعه.

ثانياً: الإيذان بعدم الخلف، أي: أنَّ ما قالته الملائكة بشارةً ووعداً مستقبلياً، سيتحقق وجوداً؛ وذلك أن بشارتها إنما صدرت عن أمر الله تعالى لا عن أمرها، وبذلك فلن تتخلف بشارتها.

ثالثاً: الثقة بما تمَّ تفصيله في المواضع الأخرى[1]؛ فقد قص الله تعالى هذه القصة في عدة مواضع من القرآن، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن، فهو يرى – رحمه الله تعالى – أن تقدير المحذوف يكون بوساطة سياق المقطع[2]، سواء أكان في هذه السورة، أم في غيرها من السور، والعبرة إنما تكمن في المقطع المتحد الدلالة في موضوع ما، وهو نوع من أنواع السياق الخاص، الذي يجعله العلماء من قبيل تفسير القرآن بالقرآن، وإن كان هناك فرق بين التفسير السياقي وتفسير القرآن بالقرآن، ليس هنا موطن تفصيله.

وهذه الأسباب الثلاثة تُعطي منهجيةً واضحة للنظر في الآيات القرآنية التي قامت على شبيه هذا الحذف، وتُعين المتدبرَ على تقدير المحذوفات على ضوء الفاء الفصيحة.

وقد ذكر ابن عطية – رحمه الله تعالى – أن الكلام من قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

(١) من منهج أبي السعود أنه يبين المعاني بالسياق، وكذلك يفسر القرآن بالقرآن من حيث تقدير المحذوفات، وهو لون من ألوان تفسير القرآن بالقرآن التي تمتاز بالدقة العلمية، وهو يحتاج إلى حسن نظر وفهم وتدبر في بيان النصوص القرآنية بالنصوص القرآنية، لاسيما فيما يتعلق بالقصة القرآنية، وهذا منَ بيان الوحدة الاتساقية بين المقاطع القرآنية المتحدثة عن موضوع واحد، فعند قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات:٣٥)، قال: «والفاء فصيحة، مفصحة عن جمل قد حذفت ثقةً بذكرها في مواضع أخر؛ كأنه قيل: فباشروا ما أُمروا به، فأخرجنا بقولنا فأسر بأهلك الخ»، يُنظر: تفسير أبي السعود، ج٨ص١٤١، وعند قوله تعالى: ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾(النازعات:٢٠) قال: «والفاء في قوله تعالى:﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فصيحة، تفصح عن جمل قد طويت تعويلاً على تفصيلها في السور الأخرى» يُنظر: **إرشاد العقل السليم**، لأبي السعود، ج٩ص٩٩.

(٢) يُنظر: **نظرية السياق القرآني** للمثنى عبد الفتاح محمود ص٩٠.

يَمَرْيَمُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾خطاب لمريم، ومن قوله: ﴿ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلى قوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾(آل عمران: ٥١)، مُحتمل أن يكون الخطاب لمريم؛ وعليه فإن الكلام من قوله:﴿ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾إلى قوله:﴿ صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾جاء بعده حذفٌ، تقديره؛ «فجاء عيسى بني إسرائيل رسولاً فقال لهم ما تقدم ذكره، ويُحتمل أن يكون المتروك مقدراً في صدر الكلام بعد قوله:﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ فيكون تقديره؛ فجاء عيسى كما بشرَّ الله رسولاً إلى بني إسرائيل بأني قد جئتكم، ويكون قوله: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم ﴾ ليس بخطاب لمريم، والأول أظهر»[1].

فهذان التقديران مبنيان على توجيه الخطاب، فإذا كان الخطاب من أوله إلى قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾لمريم؛ فإن تقدير المحذوف يكون قبل الفصيحة، وإذا كان على احتمال أنّ الخطاب ليس لمريم من قوله تعالى:﴿ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم ﴾ إلى قوله:﴿ صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾؛ فإن التقدير حينئذ يتقدم، ولا يتم تقدير محذوفٍ قبل الفاء، والراجح أنَّ الخطاب لمريم من أول الكلام إلى آخره، وهو ما رجحه، وقال: «قبل هذه الآية متروك به يتم اتساق الآيات تقديره؛ فجاء عيسى – عليه السلام– كما بشر الله به، فقال جميع ما ذكر لبني إسرائيل﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾»[2].

وقد تابعه على ذلك أبو حيان في البحر المحيط دون أن يبين الراجح، وقدَّر المحذوف بقوله: «فجاء عيسى بني إسرائيل ورسولاً، فقال لهم ما تقدّم ذكره، وأتى بالخوارق التي قالها، فكفروا به وتمالؤوا على قتله وإذايته،﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ ﴾»[3]، وهذا ما ذهب إليه الآلوسي، حيث أشار إلى كلام ابن عطية وجعل الفاء مفصحة عن محذوف[4].

وقد نقل محمد رشيد رضا عن شيخه محمد عبده توجيهاً لهذا الحذف الذي عدَّه من إيجاز القرآن – وهو كذلك –، بتقديرٍ فيه مزيدُ تفصيلٍ وبيان فقال: «انتقل من البشارة بعيسى إلى ذكر خبره مع قومه، وطوى ما بينهما من خبر ولادته ونشأته وبعثته مؤيداً بتلك الآيات، وهذا من إيجاز القرآن الذي انفرد به، فقد انطوى تحت قوله:﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ

(١) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج١ص٤٤٩–٤٥٠.
(٢) المرجع السابق، ج١ص٤٥٥.
(٣) أبو حيان، **البحر المحيط**، ج٢ص٤٨٧.
(٤) الآلوسي، **روح المعاني**، ج٣ص١٧٤.

﴿مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ جميع ما دلت عليه البشارة، وعلم أنه ولد وبعث ودعا وأيد دعوته كما سبقت البشارة، فأحس وشعر من قومه – وهم بنو إسرائيل – الكفر والعناد والمقاومة والقصد بالإيذاء»[1].

ونجد أن تقديرات أبي السعود اتسمت بالطابع السياقي في معظم تفسيره، فعند قوله تعالى:﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ (الروم:٥١) يقول: «والفاء في فرأوه فصيحة.. أي: وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارةً أو باردة؛ فضربت زرعهم بالصفار فرأوه مصفراً، ليظلنَّ من بعده يكفرون»[2]، وذلك على جعل الضمير عائداً على الزرع لا على السحاب[3].

وكذلك عند قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾(النحل:٣٦)، قال: ﴿فَمِنْهُم﴾أي: من تلك الأمم، والفاء فصيحة، أي: فبلغوا ما بعثوا به من الأمر بعبادة الله وحده، واجتناب الطاغوت، فتفرقوا؛ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾إلى الحق الذي هو عبادته، واجتناب الطاغوت، بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئي إلى تحصيله،﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[4].

المطلب الثاني

تنوع الدلالة الاحتمالية في تقدير الجملة المحذوفة

الجملة المحذوفة التي تنبئ عنها الفاء الفصيحة لها احتمالات في تقديرها، فقد تُوجه على أنها تعليلية بمعنى النهي، أو بمعنى الشرط، فمن ذلك ما جاء عند قوله تعالى:﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾ (الأنعام:١٥٧)، نجد أن أبا السعود – رحمه الله تعالى – جعل الفاء الفصيحة مقدِّرةً جملة

(١) محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج٣ص٢٥٨.

(٢) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٧ص٦٥، ويُنظر: **روح المعاني**، للآلوسي، ج٢١ص٥٤، وذهب إلى تقدير أبي السعود الشوكاني دون أن يصرح بأن الفاء فصيحة، يُنظر: **فتح القدير**، للشوكاني، ج٤ص٣٢٩.

(٣) وهناك من ذهب إلى أن الضمير يعود على السحاب، يُنظر: **النكت والعيون**، للماوردي، ج٤ص٣٢١.

(٤) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٥ص١١٣، ويُنظر: **روح المعاني**، للآلوسي ج١٤ص١٣٩.

محذوفة، واحتمل احتمالين لمعنى هذه الجملة، إما أن تكون جملة تعليلية، وإما شرطية، فقال في قوله تعالى: ﴿ فَقَدۡ جَآءَكُم ﴾«متعلق بمحذوف ينبئ عنه الفاء الفصيحة؛ إما معلَّل به، أي: لا تعتذروا بذلك﴿ فَقَدۡ جَآءَكُم ﴾الخ، وإما شرط له، أي: إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين – على تقدير نزول الكتاب عليكم –؛ فقد حصل ما فرضتم، وجاءكم بينة»(١).

والفاء الفصيحة تمكنت في هذا السياق؛ لأنها كشفت عما يختلج في نفوس المخاطبين، فكانت أشد وقعاً، ولهذا قال الزمخشري: «والمعنى: إن صدّقتكم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم؛﴿ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾، فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف»(٢)، وذلك أن الحذف هنا أقوى دلالة من الذكر، لاسيما أنه كشف عن خفيات النفوس، ورتَّب مجيء البينات على الجملة الشرطية المحذوفة؛ ليكون إلزاماً لهم فيما ادعوه.

وقدَّر بعضُهم المحذوفَ بقوله: «إن كنتم كما تزعمون أنكم إذا أنزل عليكم كتاب تكونون أهدى من اليهود والنصارى فقد جاءكم»(٣)، وهذان التقديران حسنان، مقبولان من حيث الظاهر، وإن كان تقدير الزمخشري أوفق لتناسبه مع بيان الخفي، وأعمق في دلالته على واقع المخاطبين.

وقدَّر ابن عاشور جملةً شرطيةً أراها شارحةً لما كتبه الزمخشري فقال: «ولقد تهيأ المقام بعد هذا التنبيه العجيب لفاء الفصيحة في قوله:﴿ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ وتقديرها: فإذا كنتم تقولون ذلك، ويهجس في نفوسكم؛ فقد جاءكم بيانٌ من ربكم، يعني: القرآن، يدفع عنكم ما تستشعرون من الانحطاط عن أهل الكتاب»(٤).

وقد ذكر أبو حيان أنَّ المفسرين أطبقوا على أنَّ مقصود هذه الجملة وغرضها هو ما تضمنته من معنى الحذف الذي ذكره الزمخشري، وتابعه عليه المفسرون فقال: «وأطبق المفسرون على أن الغرض بهذه الجملة إقامة الحجة على مشركي العرب وقطع احتجاجهم»(٥).

(١) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٣ص٢٠٢.
(٢) الزمخشري، **الكشاف**، ج٢ص٧٧، ويُنظر: **مدارك التنزيل**، للنسفي، ج١ص٣٥٤.
(٣) السمين الحلبي، **الدر المصون**، ج٥ص٢٣١.
(٤) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٧ص١٣٥.
(٥) أبو حيان، **البحر المحيط**، ج٤ص٢٥٨.

وأصل هذا ما رواه الطبري عن السدي حين قال: «قد جاءكم بينة، لسانٌ عربي مبين، حين لم تعرفوا دراسة الطائفتين، وحين قلتم: لو جاءنا كتاب لكنا أهدى منهم»(١)، وهو ما أبرزه ابن كثير حين قال: «وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: وقطعنا تعللكم أن تقولوا لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم؛ لكنا أهدى منهم فيما أوتوه»(٢).

والصحيح أن معنى التعليل ملحوظ في السياق كله، كما أشار إليه أبو حيان؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾(الأنعام:١٥٥-١٥٧).

فقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ وما عطف عليه ﴿أَوْ تَقُولُواْ﴾ أفاد معنى التعليل، وهو معنىً ملحوظ بيِّنٌ لا يُحجب عن الأبصار، لكن هذا لا يعني أبداً أن تكون الفاء الفصيحة قد أفصحت عن جملة معلَّلة، قدَّرها أبو السعود بقوله: «لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم» فحسب، فإنَّ الأوفق أن تكون الجملةُ التي أفصحت عنها الفاءُ شرطيةً، وهو مذهب الزمخشري، فإنَّ تقدير الشرطية يُسهم في بيان معنى التعليل للسياق، وهذا أدق مسلكاً من جعل الجملة المحذوفة معلَّلة؛ لأن الشرط دليل التعليل، وهو أقوى في إقامة الحجة على المخاطبين.

وعلى تقدير أبي السعود: «إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين – على تقدير نزول الكتاب عليكم –؛ فقد حصل ما فرضتم، وجاءكم بينة»، فإن الدليل هاهنا دليل عملي لا نظري، بخلاف الجملة التعليلية التي قدرها بقوله: «لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم»، فإن الملحظ النظري فيها أوضح، وبلا شك أن الدليل العملي في إقامة الحجة من خلال تقدير الشرطية هو الأوفق في غور النفوس وكشفها، وهو الأوضح دلالة في هذا المقام، كما هو مذهب الزمخشري، فالأرجح جعل الجملة المحذوفة شرطيةً، وهو ما يقوي معنى التعليل الحاضر في سياق الآيات، وهذا يجعلنا نقرر بأن التقديرات محتملةٌ، والذي

(١) الطبري، **جامع البيان**، ج١٢ص٢٤٣.
(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٢ص٢٣٥.

يرجح تقدير احتمالٍ على آخر هو دقة النظر في فهم المراد.

المطلب الثالث

تقدير الجملة المحذوفة شرطيةً

سبق بيان أن تقدير الجملة المحذوفة يكون في أحد أحواله شرطاً، وهو مما يختلفُ في تقديره النظَّارُ، بحسب المعنى وفهم الأبعاد السياقية للحذف، ولا يخفى أن هذا الاختلاف ناشئ عن مدى تذوق المفسر للقرآن بأبعاده الدلالية والإيحائية، وتقدير المحذوف مرتبط بدقة المفسر في إعطاء المعنى حقه ومستحقه من الألفاظ الدالة عليه، وسنقف مع بعض الأمثلة التي تبين هذه الدقة في تفسير أبي السعود.

فعند قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾(النحل: ١-٢)، يقول – رحمه الله –: «الفاء فصيحة، أي: إذا كان الأمر كما ذكر من جريان عادته تعالى، بتنزيل الملائكة على الأنبياء – عليهم السلام–، وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له في الألوهية، ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ في الإخلال بمضمونه، ومباشرة ما ينافيه من الإشراك وفروعه، التي من جملتها الاستعجال والاستهزاء»[1].

ورأى ابن عاشور أن الفاء متفرعة عن الإنذار[2]، ومذهب أبي السعود أوفق بالآية وأرفق؛ وذلك أن قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ تفسيرٌ لغرض إنزال الملائكة بالوحي، فهي تنزل بالوحي لغاية الإنذار، وهي سنة غير متحولة، فتقدير جملة شرطية تُفصح عن مضمون الخطاب هو الأوفق بمادة الخطاب، وجعلها تفريعيةً يربطها بالإنذار فحسب، بخلاف جعلها فصيحةً فهو يربطها بمضمون الجملة المفيدة لسنة الله تعالى في الوحي، أي: إذا كانت تلك سنتي فاتقون.

ومذهب أبي السعود قائم على جعل الخطاب للمستعجلين، فهو التفات من الغيبة إلى الخطاب، كما قال الآلوسي: «وهو على ما يقتضيه الظاهر، مبني على ما مال إليه من

(١) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٨ ص٢٥٧.
(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٣ص٧٩.

اختصاص الخطاب السابق بالكفرة»[1]؛ ولذلك جعل أبو السعود الاتقاءَ اتقاءً للإخلال بمضمون التوحيد، وارتكابَ ما ينافيه من الشرك، التي من جملتها الاستعجال والاستهزاء، ومذهب من جعلها تفريعية تجويز أن يكون الخطاب عاماً، فهي داخلة في جملة المنذر به[2]، وبه يظهر إحكام رأي أبي السعود لمعنى الفاء.

ويرى أبو السعود أن الفاء الفصيحة تدخل على الشرطية لإفادة سرعة تحقق الموعود به، وهذا شيءٌ سبق بيانه باعتباره الفائدة للفاء الفصيحة، وهنا سنعرض له باعتبار تقدير المحذوف جملةً شرطية، فعند قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ﴾(النمل: ٤٠) يقول– رحمه الله –:

«ولما لم يكن بين هذا الوعد وإنجازه مدة ما – كما في وعد العفريت – استغنى عن التأكيد، وطوى عند الحكاية ذكرَ الإتيان به؛ للإيذان بأنه أمر متحقق غنيٌّ عن الإخبار به، وجيء بالفاء الفصيحة، لا داخلةٌ على جملة معطوفة على جملة مقدرة دالةٍ على تحققه فقط؛ كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾(الشعراء: ٦٣) ونظائره، بل داخلةٌ على الشرطية، حيث قيل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: رأى العرش حاضراً لديه، كما في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾(يوسف: ٣١)؛ للدلالة على كمال ظهور ما ذكر من تحققه، واستغنائه عن الإخبار به، ببيان ظهور ما يترتب عليه من رؤية سليمان – عليه السلام – إياه، واستغنائه أيضاً عن التصريح به، إذ التقدير: فأتاه به؛ فرآه؛ فلما رآه.. الخ، فحذف ما حذف لما ذكروا للإيذان بكمال سرعة الإتيان به، كأنه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه الصلاة والسلام إياه شيءٌ ما أصلاً، وفي تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه الصلاة والسلام تأكيدٌ لهذا المعنى؛ لإيهامه أنه لم يتوسط بينهما ابتداءُ الإتيان أيضاً، كأنه لم يزل موجوداً عنده، مع ما فيه من الدلالة على دوام قراره عنده منتظماً في سلك ملكه»[3].

فالذي يراه – رحمه الله – أن دخول الفاء الفصيحة على الجملة الشرطية يفيد سرعة

(١) الآلوسي، **روح المعاني**، ج١٤ص٩٥.
(٢) يُنظر: **عِنايةُ القَاضِي**، للشهاب الخفاجي، ج٥ص٣١٠.
(٣) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٦ص٢٨٧.

تحقق الموعود به، وكمال ظهور ما ذُكِر من تحققه واستغنائه عن الإخبار به؛ لأن الموعود به أصبح متحققاً للعيان، فتحققُ الموعودِ به دليلُ الدعوى، وذلك بحسب السياق الوارد فيه دخول الفاء الفصيحة على الشرطية، وعليه فإن الفاء الفصيحة أفادت هنا إضماراً وحذفاً كان له من حسن البلاغة وروعة البيان ما يجلي للمتفكر حقيقة الموقف، فالذي عنده علم الكتاب ادَّعى قدرته على إحضار عرش ملكة سبأ، وتحقق ذلك الادعاء بأدنى فاصل زماني عهده البشر(١)، فكانت الفاء الفصيحة مفصحةً عن هذا الحضور الحاضر في الأذهان، المحذوف في الكلام؛ لإفادة سرعة الإحضار، وأنه لشدة تمكنه استغني عن ذكره.

وهذا من بلاغة هذه الفاء في إبراز المعاني؛ ولذلك وجدناه – رحمه الله – يقول: «وجيء بالفاء الفصيحة، لا داخلةٌ على جملة معطوفة على جملة مقدرة دالة على تحققه فقط.. بل داخلةٌ على الشرطية»(٢)، أي: أن دخول الفاء على الشرطية أفاد أمراً إضافياً فوق كون هذه الجملة معطوفةً على مقدرة دالة على الموقف، فلو قال: فرآه مستقراً عنده؛ لأفاد مجردَّ تقدير المحذوف، لكن بدخول الفاء على الشرطية فإنه أفاد أن هذا المتحقق تحقق بسرعة هائلة، «كأنه لم يقع بين الوعد به ورؤيته عليه السلام إياه شيءٌ ما أصلاً»(٣)، وقد نظَّر أبو السعود بهذه الآية في موطن آخر من تفسيره بعبارة ناصَّة على هذا المعنى فقال: «كما حذف لتحقيق السرعة في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(٤).

وقد جعل – رحمه الله – تعالى المقدَّرَ هنا أمراً واقعاً مرتَّباً على ما قبله بوساطة الفاء الفصيحة، فقال: – رحمه الله – عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ

(١) حاول بعض المفسرين أن يفسر وجه انتقال عرش ملكة سبأ، «وقد فرع الحاكم على اختلاف رأي شيخيه في مسألة فناء الأجسام، استقامة بعض التأويلات على مذهب أحدهما دون الآخر، قال في قوله تعالى– في مسألة حضور عرش بلقيس عند سليمان بلمح البصر، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، إن مشايخه ذكروا في تفسير إحضار العرش بسرعة أربعة وجوه: أحدها: أن تحمله الملائكة بأمره تعالى. وثانيها: أن تحمله الريح. وثالثها: أن يخلق الله تعالى فيه حركات متواليات. والرابع: أنه أعدمه في ذلك الوقت وأعاده عند سليمان في مجلسه». يُنظر: **الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير**، للدكتور عدنان زرزور، ص٣٤٧.

(٢) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٦ص٢٨٧.

(٣) الآلوسي، **روح المعاني**، ج١٩ص٢٠٥.

(٤) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٤ص٢٧٢.

هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾(الملك:٢٧): «والفاء في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾فصيحة معربة عن تقدير جملتين، وترتيب الشرطية عليهما؛ كأنه قيل: وقد أتاهم الموعود فرأوه، فلما رأوه إلى آخره.. كما مر تحقيقه في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾، إلا أن المقدر هناك أمر واقع مرتَّب على ما قبله بالفاء، وههنا أمر منزل منزلة الواقع وارد على طريقة الاستئناف»[١].

وقدَّر المحذوفَ شيخُ المفسرين بأنه حاصل عن دعوة ذلك العالم بالكتاب ربَّه، حيث قال: «وفي الكلام متروك استغنى بدلالة ما ظهر عما ترك، وهو: فدعا الله، فأتى به؛﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ ﴾ سليمان﴿ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾»[٢]، وقد تابعه ابن عطية عليه بقوله: «وفي الكلام حذف، تقديره: فدعا باسم الله؛ فجاء العرش بقدرة الله،﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ ﴾ سليمان﴿ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾جعل يشكر نعمة ربه، بعبارة فيها تعليم للناس وهي عرضة للاقتداء بها والاقتباس منها»[٣]، والذي يظهر من كلام ابن عطية أن تلك الدعوة معجزة لسليمان – عليه السلام –، حيث شكر ربه تعالى على ما أولاه من تلك النعمة، وجعل شكره موطناً للتأسي والاقتداء.

بينما نجد السدي قدر محذوفاً صحيحاً، لكنه رتَّب على الشرطية أمراً لا يستقيم مع السياق، ولا يتلاءم مع مقام النبوة بحال، فقد أخرج ابن أبي حاتم روايةً عنه حيث قال: «فدعاه،﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ جزع، وقال: رجل غيري أقدر على ما عند الله مني؟!»[٤]، فهذا الكلام فوق أنه لا يليق بمقام النبوة؛ فإنه لا يلتقي مع سياق الآية، من شكرٍ لربه على ما أعطاه من عظيم النعمة وجزيل العطية.

وعند قوله تعالى:﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(التغابن:٧–٨)، قال: «والفاء في قوله تعالى:﴿ فَـَٔامِنُواْ ﴾ فصيحةٌ، مفصحة عن شرطٍ قد حُذِفَ، ثقةً بظهوره، أي: إذا كان الأمر كذلك؛﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾محمد ﷺ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾»[٥].

(١) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٩ص١٠.
(٢) الطبري، **جامع البيان**، ج١٩ص٤٦٨، ويُنظر: **فتح القدير**، للشوكاني، ج٤ص١٩٩، ويُنظر: **فتح البيان**، لصديق حسن خان، ج١٠ص٤٦.
(٣) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٤ص٣١١.
(٤) ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**، ج٩ص٢٨٨٩.
(٥) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٥ص٩٦، ويُنظر؛ **روح المعاني**، للآلوسي، ج٢٨ص١٢٣.

وقدَّر الشرطيةَ ابنُ عاشور بقوله: «فإذا علمتم هذه الحجج، وتذكرتم ما حل بنظرائكم من العقاب، وما ستنبؤون به من أعمالكم؛﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ والقرآن»(١).

ونستطيع أن نقدر جملة الشرط المحذوفة: إذا علمتم يُسرَ بعثكم وحسابكم، وكذبَ الكافرين فيما زعموه من امتناع البعث؛ ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾؛ فالإيمان بالله ورسوله والقرآن يجب أن يكون نتيجةً اعتقادية بعد بيان الحق وظهوره، ولا معنى للأمر بالإيمان قبل بيان الحق في نفوس المخاطبين، ومن هاهنا تظهر بلاغة هذه الفاء، ويظهر كذلك أثرها في نفس المخاطبين.

وعند قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾(النبأ:٣٩)، قدَّر أبو السعود الشرط المحذوف بقوله: «وإذا كان الأمر كما ذكر؛ من تحقق اليوم المذكور لا محالة، فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه، الذي ذكر شأنه العظيم، فَعَلَ ذلك بالإيمان والطاعة»(٢)، وهذا التقديرُ مبنيٌّ على الإيمان بالبعث بعد تقدم دلائله، فمن آمن فعليه أن يتخذ مآباً بعد بعثه.

وقدَّره ابن عاشور بقوله: «فإذا علمتم ذلك كلَّه؛ فمن شاء اتخاذ مآبٍ عند ربه فليتخذه، أي: فقد بان لكم ما في ذلك اليوم من خير وشر، فليختر صاحبُ المشيئة ما يليق به للمصير في ذلك اليوم. والتقدير: مآباً فيه، أي في اليوم، وهذا التفريع من أبدع الموعظة بالترغيب والترهيب، عندما تسنح الفرصة للواعظ من تهيؤ النفوس لقبول الموعظة»(٣).

وقولُ ابنِ عاشور «وفرع عليه بفاء الفصيحة»(٤)، يدل على أن الفصيحة متفرعة عن أصل؛ وهذا لا يعني أنها تفريعية، وذلك أنَّ الفصيحة متفرعةٌ عن محذوفٍ، والتفريعية متفرعة عن مذكور، ولم أقف على أحدٍ قد نصَّ على هذا الفرق، وإنما هو ما يُفهم من عباراتهم، وابن عاشور صرح بالتفريق بين التفريعية والفصيحة عند قوله تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾(يونس:٣١)، قال: «وقد اشتملت هذه الآيات على تسع فاءات من قوله:

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٨ص٢٤٤.
(٢) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٩ص٩٤، ويُنظر: **روح المعاني**، للآلوسي، ج٣٠ص٢١.
(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠ص٤٩.
(٤) المرجع السابق، ج٣٠ص٤٩.

﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾: الأولى جوابية، والثانية فصيحة، والبواقي تفريعية»[1]، خلافاً لمذهب أبي البقاء الكفوي، إذ يرى الأخير أن الصحيح أن لا فرق بينهما[2]، وعليه فابن عاشور – رحمه الله –يفرق بين هذين الفاءين، فقوله: «وفرع عليه بفاء الفصيحة»، يعني أن التفريع على أصل محذوف.

وأحياناً يقدر أبو السعود جملةً شرطية دون أن يُصَرِّح بأن الجملة المحذوفة هي شرطية، فعند قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾(يوسف:٣٢)، قال – رحمه الله –: « ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ﴾الفاء فصيحة.. والمعنى: إن كان الأمر كما قلتنَّ فذلكنَّ الملك الكريم، النائي من المراتب البشرية، هو الذي لمتنني فيه»[3]، وعليه ابن عاشور، حيث قال: «والفاء في ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ﴾ فاء الفصيحة، أي: إن كان هذا كما زعمتنَّ ملكاً، فهو الذي بلغكنَّ خبرُه فلمتنني فيه»[4]، ونكتفي بالمتقدم في بيان وظيفة الفصيحة في تقدير الشرطية في تفسير أبي السعود، التي تعكس فهمه الدقيق لمعنى الشرط المحذوف، بما يجعل الحذفَ أوضحَ بياناً من الذكر.

المطلب الرابع

حذف الفاء الفصيحة مع جملتها الداخلة عليها

يُقدِّر أبو السعود– رحمه الله – تعالى الفاء الفصيحة مع جملتها المعطوفة بحسب السياق، فعند قوله تعالى:﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:٧٣)، قدر– رحمه الله – تعالى بعد قوله:﴿ ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾جملة «فضربوه فحيي»، وجعل الخطاب في قوله تعالى:﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ﴾محتملاً لمُخاطَبَين، فقال– رحمه الله –: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾على إرادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام، أي: «فضربوه فحيي، وقلنا:﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ﴾ الخ»؛ فحذفت الفاء الفصيحة

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١١ص٧٤.
(٢) الكفوي، **الكليات**، ص١٠٧٤.
(٣) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٤ص٢٧٢، ويُنظر: **روح المعاني**، للآلوسي، ج١٢ص٢٣٢، و**التفسير الوسيط**، لطنطاوي، ج٧ص٣٥٤.
(٤) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٢ص٥٦.

في «فحيي» مع ما عطف بها وما عطف هو عليه؛ لدلالة﴿كَذَٰلِكَ﴾على ذلك[1]، فالخطاب في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ حينئذ للحاضرين عند حياة القتيل»[2]، وهذا التقدير إنما أوجبه تعلق قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾بما قبله، ويترتب على ذلك أن يكون الخطاب لمن حضر وشاهد إحياء القتيل، وعلى هذا التقدير فالجملة في محل نصب نعت «لمصدر محذوف تقديره: يحيي الله الموتى إحياءً مثل ذلك»[3].

وهناك من اعترض على جعل الفاء هاهنا فصيحة، فنقل الشهاب ردَّ بعض الفضلاء لمن زعم أن الفاء فصيحة فقال: «من زعم أن الفاء في «فحيي» فصيحة؛ فقد غفل عن أنَّ ذلك على تقدير أن تكون مذكورة، وما قبلها محذوفاً، وأما إذا حُذِفا معاً، وقُدِّرا معاً؛ كالذي نحن فيه، فالفاء سببية محضة»[4]، وردَّه الشهاب بقوله: «وليس بشيء؛ لأنه متفق على صحة مثل هذا التقدير»[5]، وقال في موطن آخر: «وهذا يتراءى في بادئ النظر؛ لأنها إنما سميت فصيحة؛ لإفصاحها عن المحذوف، وهو ينافي حذفها، وعند التأمّل ليس بشيء؛ لأنه إمّا أن يريد: أنها لو ذكرت كانت فصيحة، أو، أنها في قوة المذكورة هنا، فيصح تسميتها فصيحة؛ لأنّ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مدخولها، أي: مثل هذه الحياة الحاصلة بالضرب، والإشارة إلى المذكور بل المحسوس، فلولا تنزيلها منزلته لم يصح ذلك، فتأمّل. ومثل هذه الاعتبارات لا حجر فيها»[6].

وقد أُجيز حذف الفاء إذا أتت تبعاً، قال ابن هشام في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾(آل عمران:١٠٦): «الأصل: فيقال لهم: أكفرتم؟!فحذف القول،

(١) يقول الزمخشري: «والمعنى: فضربوه فحيي، فحذف ذلك لدلالة قوله:﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يُنظر: **الكشاف**، للزمخشري، ج١ص١٨١. وبينَّ عبارة الزمخشريِّ البيضاويُّ فقال: «يدل على ما حذف وهو: فضربوه فحيي، والخطاب مع من حضر حياة القتيل أو نزول الآية»، البيضاوي، **أنوار التنزيل**، ج١ص٣٤٤.

(٢) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج١ص١١٤.

(٣) العكبري، **التبيان في إعراب القرآن**، ج١ص٧٨.

(٤) الشهاب الخفاجي، **عناية القاضي**، ج٤ص١٩.

(٥) المرجع السابق، ج٤ص١٩.

(٦) المرجع السابق، ج٢ص١٨٤.

استغناءً عنه بالمقول، فتبعته الفاء في الحذف، وربَّ شيءٍ يصح تبعاً ولا يصح استقلالاً»[١].

وهذا على احتمال جعل الخطاب في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ﴾ لمن حضر تلك الحادثة، أما على احتمال أن يكون الخطاب لمن نزلت فيهم الآيات؛ فإن تقدير الفاء الفصيحة يبقى لازماً، وتقديره: «فضربوه فحيي»، ويترتب على ذلك أن تكون جملةُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ اعتراضيةً، ولا داعي عنده حينئذ إلى تقدير القول المحذوف، يقول- رحمه الله -: «ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند نزول الآية الكريمة، فلا حاجة حينئذ إلى تقدير القول، بل تنتهي الحكاية عند قوله تعالى: ﴿بِبَعۡضِهَا﴾ مع ما قدر بعده، فالجملة معترضة، أي: مثل ذلك الإحياء العجيب يحيي الله الموتى يوم القيامة»[٢].

والاحتمال الثاني: هو مذهب الطبري فقد ذهب إلى أن الخطاب للمؤمنين وهو محاجة للمشركين فقال: «مخاطبة من الله عباده المؤمنين، واحتجاج منه على المشركين المكذبين بالبعث، وأمرهم بالاعتبار بما كان منه جلَّ ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدنيا، فقال لهم تعالى ذكره: أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإني كما أحييته في الدنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث»[٣]، يقول ابن عطية: «وذهب الطبري إلى أنها خطاب لمعاصري محمد ﷺ، وأنها مقطوعة[٤] من قوله تعالى: ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا﴾»[٥].

وتبقى الفاءُ الفصيحة المحذوفة مقدرةً على الاحتمالين، لكنَّ الفرقَ بينهما، أنه على

---

(١) ابن هشام، **مغني اللبيب**، ص٨٠.

(٢) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج١ص١١٤.

(٣) الطبري، **جامع البيان**، ج٢ص٢٣٢.

(٤) القطع هاهنا قطع من حيث الخطاب لا من حيث الدلالة، فمعنى قول ابن عطية – رحمه الله تعالى –: «مقطوعة من قوله تعالى: ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا﴾» أي مقطوعة من خطاب الله تعالى للمأمورين بضرب القتيل ببعض البقرة، لا أنها مقطوعة من دلالة الآية، فالدلالة قائمة بأن ما أُمروا به من ضرب القتيل ببعض البقرة كان لمقصد إحيائه وتعيينه للقاتل، وكان كذلك دليلاً على إحياء الموتى بعد موتهم، وعليه فالخطاب مقطوع عن خطاب السابقين إلى خطاب اللاحقين، لكنه ليس مقطوعاً في الدلالة على قدرة الله تعالى على الإحياء، وهاهنا مكمن العبرة والعظة، فسواء قلنا باتحاد الخطاب للسابقين، أم قلنا بتوزيع خطاب القصة للسابقين وخطاب التمثيل للاحقين؛ فإن ذلك كلَّه يصب في المقصود المراد، وهو الدلالة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

(٥) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج١ص١٤٦.

الاحتمال الأول يكون هناك قولٌ مقدَّرٌ معطوف على جملة محذوفة وهي: «فضربوه فحيي»، والخطاب حينئذ لمن شاهد الإحياء، وعلى الاحتمال الثاني تكون الجملة المحذوفة غيرَ معطوف عليها قول مقدَّر، والخطاب حينئذ للناس زمن نزول الآية، والجملة حينئذ اعتراضية.

فالفاء الفصيحة المقدرة على هذين الاحتمالين حاضرة في معناها، واضحة في دلالتها بدليل﴿كَذَٰلِكَ﴾، فنحن لا نستطيع فهمَ الإحياء في قوله:﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ إلا بعد علمنا بأنه حصل إحياء لهذا الميت، وذلك بعد الاستجابة للأمر بضرب القتيل ببعض البقرة، فتصورُنا كان للإحياء أولاً بدليل:﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ ولذلك فالفاء الفصيحة هي الداخلة على «حيي» لا على «ضربوه»، فتلك للتعقيب، وهي كالشرط للإحياء، ثم لضرب القتيل ببعض البقرة ثانياً، وذلك باعتباره أداة الإحياء التي أرادها الله سبحانه وتعالى بإذنه، فكان التقدير: «فضربوه فحيي».

المبحث الثالث
الجانب النقدي

سنعرض في هذا المبحث للجانب النقدي، حيث إنه لا يسلم أحدٌ من النقد العلمي، وهدف ذلك، بيان أنَّ فهم كلام الله تعالى، يخضع للعلم لا للرجال، وأنَّ الحق مقدَّمٌ على أي اعتبارٍ آخر، مما يجعل الجميع تحت خط القداسة، وأنَّ الكلَّ يُوخذ منه ويُردُّ عليه إلا صاحب العصمة صلوات ربي وسلامه عليه، وسأجعله في مطلبين، **الأول:** في تقدير الجملة المحذوفة، و**الثاني:** في تحديد نوع الفاء.

المطلب الأول
تقدير الجملة المحذوفة

يختلف المفسرون في تقدير الجملة المحذوفة بحسب اختلافهم في تشخيص المعاني، وتحديد مقاصد الجمل القرآنية، وسأعرض لاختلاف تقدير الجملة المحذوفة بحسب المعنى ومقصده، فإن الفاء الفصيحة تفيد بيان موقف القرآن من المخاطبين، حيث تكون الفاء مفصحةً عن محذوف يبين واقع المخاطبين، ويكشف عن حقيقة نفسياتهم، فشأن القرآن في هذا الباب عظيمٌ جداً، فأساليب القرآن قائمة في أحد أهم صورها البيانية في الكشف عن مضمرات النفوس وخفاياها، فعند قوله تعالى:﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ (آل عمران:١٤٣)، يقول أبو السعود: «والفاء فصيحة؛ كأنه قيل:

إن كنتم صادقين في تمنيكم ذلك؛ فقد رأيتموه معاينين له، حين قُتِل بين أيديكم من قُتِل من إخوانكم وأقاربكم، وشارفتم أن تقتلوا، فلِمَ فعلتم ما فعلتم؟!»[١]، وتابعه في تقدير المحذوف الآلوسي[٢].

ولهذا الحذف الذي أفصحت عنه الفاء فائدة تربوية تهذيبية، وذلك أن «قومًا من أصحاب رسول الله ﷺ ممن لم يشهد بدرًا، كانوا يتمنون قبل أحد يومًا مثل يوم بدر، فيُبْلُوا الله من أنفسهم خيرًا، وينالوا من الأجر مثل ما نال أهل بدر؛ فلما كان يوم أحد فرَّ بعضهم، وصبرَ بعضهم حتى أوفَى بما كان عاهد الله قبل ذلك، فعاتب الله من فرّ منهم فقال: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾، وأثنى على الصابرين منهم والموفين بعهدهم»[٣].

فهو عتاب من الله تعالى لمن تمنى لقاء الموت؛ وقد جاء في السنة ما يعزز هذا المعنى العتابي، فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما أن النبي ﷺ قام خطيباً في الناس فقال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[٤].

وتقدير أبي السعود للجملة المحذوفة: «إن كنتم صادقين في تمنيكم ذلك» مأخوذ من هذا العتاب، لكنه شدَّد – رحمه الله تعالى – في العبارة، فقال: «وهو توبيخ لهم على تمنيهم الحرب وتسببهم لها، ثم جبنهم وانهزامهم، لا على تمني الشهادة بناءً على تضمنها لغلبة الكفار؛ لما أن مطلب من يتمناها نيل كرامة الشهداء من غير أن يخطر بباله شيءٌ غيرُ ذلك، فلا يستحق العتاب من تلك الجهة»[٥].

فتقدير الجملة الشرطية بهذا اللفظ فيه شدة وغلظة للمخاطبين، وفي ظني أن تقدير ابن عاشور – رحمه الله – أوفق مقاماً حيث قال: «والفاء في قوله: ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾فاء الفصيحة

(١) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٢ص٩٢، ويُنظر؛ **الكشاف**، للزمخشري، ج١ص٤٤٩.
(٢) الآلوسي، **روح المعاني**، ج٤ص٧١.
(٣) الطبري، **جامع البيان**، ج٧ص٢٤٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، يُنظر: **الجامع الصحيح المختصر**، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، رقم الحديث: (٢٨٠٤)، ج٣ص١٠٨٢، ومسلم في صحيحه، يُنظر: **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، رقم الحديث: (١٧٤٢)، ج٣ص١٣٦٢.
(٥) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٢ص٩٢، ويُنظر؛ **الكشاف**، للزمخشري، ج١ص٤٤٩.

عن قوله: ﴿كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ﴾، والتقدير: وأجبتم إلى ما تمنيتم فقد رأيتموه، والمعنى: فأين بلاء من يتمنى الموت؟!»[1]، فالعتاب في هذا التقدير أوضح، وهو أليق بالمخاطبين من التوبيخ؛ لأنهم كانوا صادقين في تمنيهم وحبهم للشهادة، لكنهم لم يُقدِّروا الأمور تقديرها المناسب، فوقعوا فيما وقعوا فيه، وهي دروس تربوية تهذيبية، والتعنيف والتوبيخ ليس هو المقصود منها ألبتة.

المطلب الثاني
تحديد نوع الفاء

الخلاف واردٌ في وجوه الإعراب والبيان، وهو كذلك واقع في تحديد نوع الفاء، وبيان وظيفتها، وذلك بحسب النظر السياقي في فهم النص، فعند قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾(التوبة:٥٢)، قال – رحمه الله تعالى –: «الفاء فصيحة، أي: إذا كان الأمر كذلك؛ فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا[2]»[3]، وتابعه الآلوسي[4]، وقال أبو زهرة: «الفاء فاء الإفصاح، المنبهة عن شرط مقدر، أي: إذا كان هذا أمرنا وأمركم في التربص؛ فتربصوا»[5].

وذهب ابن عاشور إلى أن الفاء هاهنا تفريعية، فقال: «وتفرع على جملة ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ جملة ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾؛ لأنه إذا كان تربص كل من الفريقين مسفراً عن إحدى الحالتين المذكورتين، كان فريق المؤمنين أرضى الفريقين بالمتربصين؛ لأن فيهما نفعه وضر عدوه»[6].

ومذهب ابن عاشور هو الأوفق، وهو أن الفاء هاهنا تفريعية لا فصيحة؛ وذلك أن التفريعية أوضح بياناً من الفصيحة في هذا السياق، فهي متفرعة عن قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣ص٢٣٦.
(٢) هذا التقدير وهو: «فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا»، للزمخشري، يُنظر: **الكشاف**، للزمخشري، ج٢ص٢٦٥.
(٣) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٤ص٧٤.
(٤) الآلوسي، **روح المعاني**، ج٢١ص١٤١.
(٥) أبو زهرة، **زهرة التفاسير**، ج٦ص٣٣٣٠.
(٦) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٠ص١١٩.

﴿تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾، فأن يتفرع عن هذا السؤال أمرٌ مقصوده التهديد والوعيد، أولى من تقدير جملة شرطية «إذا كان الأمر كذلك»، إذ في هذا التقدير شبهة التكرار، ومذهب البلاغة العالية أن يوافق الكلام مقتضى الحال، ومن مقتضاه أن يأتي التهديد متفرعاً عن سؤالهم المتضمن معنى النفي، فهم يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ويغفلون عن نصرهم أو شهادتهم، فمن حيث نفى الهزيمة أثبت إحدى الحسنين، فناسب ذلك أن تكون الفاء تفريعيةً، حيث فرَّعت معنى التهديد المادي، على معنى التهديد المعنوي، وهو الأوفق من جعلها فصيحةً معطوفة على شرط مقدر، وقد قال الحسن البصري: «فتربصوا مواعيد الشيطان، إنَّا متربصون مواعيد الله، من إظهار دينه، واستئصال مَنْ خالفه»[1]، وصرَّح به ابنُ عطية[2].

وكذلك ذهب أبو السعود إلى جعل الفاء في﴿ فَٱسْتَكْبَرُواْ ﴾من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾(يونس:٧٥) فصيحة، وقدّر الجملة المحذوفة بقوله: «فأتياهم فبلغاهم الرسالة، فاستكبروا عن اتباعهما»[3].

وخالفه ابن عاشور، حيث جعلها تفريعية على﴿ بَعَثْنَا ﴾، فقال: «وتفريع: ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ على جملة:﴿ بَعَثْنَا ﴾، يدل على أنَّ كلَّ إعراض منهم وإنكار في مدة الدعوة والبعثة هو استكبار»[4].

ويرشح مذهبَ ابن عاشور اللحاقُ، حيث قال سبحانه:﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ فإجرامهم هو سبب استكبارهم، وكونها تفريعية أوضح من جعلها فصيحة، وما طُويَ ذكرُه من الإتيان والتبليغ ملحوظ في السياق، لكن جعل الفاء مفرِّعةً الاستكبارَ على البعثة هو الأوجه في هذا السياق؛ لأن حمل الاستكبار على البعثة هو المقصود بالأوليَّة، والإتيان والتبليغ من مستلزمات البعثة لا العكس، فإذا استكبروا على البعثة فهم مستكبرون تبعاً على التبليغ.

والمدقق يرى أن الاستكبار هو على البعثة؛ لأن الاستكبار هو استكبار على الحق، وإجرام قوم فرعون كان للمبلغين، وعليه؛ فهم قاموا بأمرين اثنين؛ **الأول**: الاستكبار، **الثاني**:

(١) البغوي، **معالم التنزيل**، ج٤ص٥٨.
(٢) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج٣ص٤٨.
(٣) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج٤ص١٦٧.
(٤) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١١ص١٤٧.

الإجرام، فأما الاستكبار فهو في مقابل الحق وهو أصل البعثة، وأما الإجرام فهو لمن بلَّغ الحق، فتكون الفاء على ذلك تفريعية بالأصالة، فصيحة بالتبع.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الخاتمة

نخلص في نهاية هذا البحث إلى تسجيل **مجموعة من النتائج العلمية**، وهي كالآتي:

أولاً: سُميت الفاء الفصيحة بهذا الاسم لإفصاحها عن الجملة المحذوفة، وأما فصاحة المتكلم والكلام فهو من باب تحصيل الحاصل، فإذا كانت الجملة المذكورة تُفصح عن المحذوفة فالكلام بليغ، وقائله فصيح.

ثانياً: أول من سماها بهذا الاسم جار الله الزمخشري، وتابعه على هذه التسمية السكاكي فالخطيب القزويني فبقية العلماء من مفسرين وبيانيين.

ثالثاً: ضابط الفاء الفصيحة أن يكون المحذوف سبباً للمذكور، وذلك هو السبيل الأوفق لتقدير الجمل المحذوفة في القرآن الكريم، بقطع النظر عن وجه تقديرها، شرطيةً أو أمراً أو نهياً.

رابعاً: هناك فرق بين الفاء الفصيحة والتفريعية مع أنَّ كليهما متفرعتان عن جملة الأصل، فالفصيحة متفرعةٌ عن أصل محذوف يُقدَّر سياقياً، وأما التفريعية فهي متفرعة عن أصل مذكور.

خامساً: كانت عناية أبي السعود عاليةً بالفاء الفصيحة، حيث كان إفصاحه عن الفصيحة واضحاً، وفي ظني أن أبا السعود لم يُسبق إلى مثل هذا التوسع في الفاء الفصيحة من مفسرٍ قبله، ومعظم الذين جاءوا بعده أفادوا منه؛ كالشهاب والآلوسي، وابن عاشور، وإن كان الأخير له نظرات ناقدة في بعض الأحيان.

سادساً: كانت عناية أبي السعود بالفاء الفصيحة مختزلةً وذات عبارات دقيقة وموجزة، على طريقته – رحمه الله تعالى – في سبك الألفاظ وترصيع الكلمات.

سابعاً: سجلت أربع فوائد للفاء الفصيحة، وهي؛ تصوير سرعة الامتثال، وتحقق الحدث، وبيان معنى التعليل، وبيان عنصر المفاجأة، وهي ما أداني إليه اجتهادي في فهم كلام أبي السعود.

ثامناً: وجدت أنَّ تقدير الفصيحة يكون إما عبر التقدير السياقي، أو تنوع الدلالة الاحتمالية في تقدير الجملة المحذوفة، أو تقدير الجملة المحذوفة شرطيةً، أو حذف الفاء الفصيحة مع جملتها الداخلة عليها.

تاسعاً: تمثل الجانب النقدي عندي في مطلبين وهما؛ تقدير الجملة المحذوفة، وتحديد نوع الفاء، حيث إنَّ تقدير المحذوف وتعيين نوع الفاء أمر اجتهادي، تختلف فيه أنظار المفسرين.

عاشراً: تُعدُّ الفاء الفصيحة وجهاً من أوجه الإيجاز القرآني؛ ولذلك وجدنا أنَّ بعض البيانيين عدَّها في باب إيجاز الحذف، ولم يجعلها في باب حروف المعاني.

وأما التوصيات العلمية فهي كالآتي:

أولاً: يستحق بحث الفاء الفصيحة في القرآن الكريم دراسةً أكاديمية مستقلة في كتب التفسير، بحيث تُدرس الفاء الفصيحة دراسة بيانية تحليلية نقدية مقارنة بين المفسرين، واستخلاص خصائصها وضوابطها وشروطها وتطبيقاتها في كتب التفسير، مع عقد مقارنة بينها وبين بقية أنواع الفاء.

ثانياً: تُعد الفاء الفصيحة شكلاً من أشكال الإيجاز في القرآن، وعليه فيستحق أن يُفرد بحث مستقل، يُبرَزُ من خلاله دور الفاء الفصية في إبراز وجوه الإيجاز في القرآن الكريم.

ثالثاً: الدراسات القرآنية بحاجة ملحة إلى دراسة الرابط بين المحذوف والمذكور في القرآن الكريم، بما يرسم المعالم الرئيس لقانون الحذف مع وجود دالِّه في القرآن الكريم.

رابعاً: هناك فرق بين الفاء الفصيحة وغيرها من أنواع الفاء في القرآن الكريم، وهذا يحتاج إلى دراسة تطبيقية، تعتمد السياق والتحليل الناقد، لوضع أبرز الفروق بين أنواع الفاء.

المصادر والمراجع

١. الآلوسي، محمود الآلوسي أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).

٢. الأحمد نكري، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول، دستور العلماء، تحقيق: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٣. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق:

د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٤. البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٥. البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت لبنان، (د.ط)، (د.ت).

٦. أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٧. الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.

٨. رشيد، محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، دار المنار، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، ١٣٧٣هـ.

٩. زرزور، عدنان محمد، الحاكم الجشمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

١٠. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،لبنان(د.ط)، (د.ت).

١١. أبو زهرة، محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت).

١٢. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان، (د.ط)، (د.ت).

١٣. السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ،١٩٨٧م.

١٤. السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، دار القلم، دمشق ، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م.

١٥. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، (د.ط)، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٥م.

١٦. الشربيني، محمد بن أحمد، السراج المنير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).
١٧. الشهاب الخفاجي، أحمد بن محمد بن عمر، عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
١٨. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، القاهرة، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٨٣هـ،١٩٦٤م.
١٩. صديق خان، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن، فتح البيان في مقاصد القرآن، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المكتبة العصرية، صيدا ، لبنان، (د.ط)، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
٢٠. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
٢١. طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط، مطبعة السعادة، القاهرة ، مصر، (د.ط)، ١٩٨٥م.
٢٢. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ،٢٠٠٠م.
٢٣. عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة – مصر، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ ،٢٠٠٥م.
٢٤. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
٢٥. العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ، مصر، (د.ط)، (د.ت).
٢٦. الفارسي، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، الحجة للقراء السبعة، تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ،١٩٩٣م.

٢٧. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، (د.ت).
٢٨. القزويني، أبو عبد الله جلال الدين محمد بن سعد الدين بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم، بيروت ، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.
٢٩. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الجديدة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٣٠. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان، (د.ط)، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٣١. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).
٣٢. محمود، المثنى عبد الفتاح، نظرية السياق القرآني، دار وائل للنشر، عمان ، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.
٣٣. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(د.ط)، (د.ت).
٣٤. مكي، أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد، الهداية إلى بلوغ النهاية، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية، بإشراف أ.د. الشاهد البوشيخي، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ.
٣٥. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، (د.ط)، (د.ت).
٣٦. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، مصر، (د.ط)، (د.ت).
٣٧. ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.